مجلة الهلال

إبريل 2000

الفريق أول محمد فوزى والعسكرية المصرية

د. رءوف عباس

ودعت مصر الفريق أول محمد فوزى الذى لقى ربه بعد حياة حافلة بالخدمة الوطنية تضعه فى مقدمة بناة الجيش المصرى الحديث، ليس فقط من خلال تربيته لأفواج من الضباط الذين تعلموا على يديه أستاذاً ومديراً للكلية الحربية لما يربو على الخمسة عشر عاماً، ولكن لفضلة ودوره فى جمع ما بقى من حطام القوات المسلحة بعد كارثة يونيو 1967 الذى أعاد منه بناء الجيش المصرى فى زمن قياسى لم يتجاوز السنوات الثلاث حتى أصبح مهيأ لخوض معركة التحرير، وهى السنوات التى شهدت بحق حرباً متصلة مع العدو زودت القوات المسلحة بالخبرات التى مكنتها – فيما بعد– من كسر أسطورة التفوق الإسرائيلى وتحقيق التوازن العسكرى مع العدو عدة وأداء حتى استطاعت مصر أن تحقق ما تم إنجازه فى حرب أكتوبر 1973 فكانت عملية إعادة بناء القوات المسلحة وا بقاء جذوة المعركة متقدة فى نفس الوقت إنجازاً تاريخياً على درجة عالية من القيمة حققته همة الفريق أول محمد فوزى.

وا ذا كان محمد فوزى لم يستطع استيعاب سياسة أنور السادات التى اتجهت إلى تجميد قرار المعركة تمهيداً للتحول من إستراتيجية المواجه إلى إستراتيجية المصالحة، فان ذلك يرجع إلى اقتناعه تماماً بأن "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة"، ويقينه من خطورة التوجه الجديد على بنية القوات المسلحة والخطط التى بذل فى وضعها الدماء والعرق، ففضل فوزى أن يستقيل حتى يبرئ ذمته من مغبة مسايرة التحول الذى لا يرى فيه مصلحة بلاده. وقد كلفه ذلك الموقف حريته الشخصية لما يزيد على العامين قضاهما فى السجن تنفيذاً لحكم بالسجن خمسة عشر عاماً. أصدره مجلس عسكرى عقد خصيصاً لمحاكمته بتهمة "العصيان والتمرد" تماماً كما حوكم احمد عرابى قبله بتسعين عاماً، وعندما خرج من السجن بعد صدور عفو السادات عنه، لم ينقطع انشغاله بالهم الوطنى ولم ينس مسئوليته أمام أمته وأجيال المستقبل من القادة العسكريين، فقدم خلاصه تجاربه فى مذكرات نشرت فى أربعة كتب ستظل مرجعاً تاريخياً مهمة لكل من يتصدى لكتابة تاريخ مصر المعاصر وتاريخ القوات المسلحة المصرية.

ولد محمد فوزى فى 5 مارس 1915، وكان والده البكباشى أمين أفندى فوزى ضابطا بالجيش المصرى توفى قبل التحاق ابنه بالكلية الحربية عام 1934، ولذلك ورد بملف محمد فوزى الطالب بالحربية اسم

عبد الوهاب أفندى زهدى سكرتير مدرسة الأورمان الابتدائية والمقيم بالعباسية كولى أمر للطالب، ولعله كان خاله، ولا يعنينا من هذا إلا ما له من دلاله على الانتماء الاجتماعى لمحمد فوزى فهو من أسرة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة التى اشتعلت من بين صفوفها جذوره العمل الوطنى على مر تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وقدمت لمصر معظم رواده ونجوم العمل الوطنى والفكر والثقافة.

حصل محمد فوزى على الابتدائية عام 1929 وعلى الكفاءة عام 1932، وعلى شهادة البكالوريا (القسم الأدبي) عام 1934 والتحق فى أكتوبر من نفس العام بالكية الحربية وتخرج فى يونيو عام 1936 ليعين ملازم أول بيادة (مشاه)، وخدم خلال الحرب العالمية الثانية فى الدفاع المضاد للطائرات عن القواعد البحرية الجوية فى الإسكندرية وبورسعيد وقناة السويس عامى 1941– 1942 ، كما خدم فى حرب فلسطين عام 1948، ولفت الأنظار إليه عندما طور استخدام المدفعية المضادة للطائرات فى تدمير أهداف أرضية حيث دمر برج المياه الإسرائيلى فى دير سنيد، وهو أمر غير مسبوق فى إستخدامات المدفعية المضادة للطائرات، وكان لقاء محمد فوزى مع جمال عبد الناصر فى عام 1948 على أرض فلسطين حيث ربطتهما صداقة حميمة إلى جانب رفقة السلاح، فلا غرابة أن نجد محمد فوزى من وائل من انضموا إلى تنظيم "الضباط الأحرار" فى خلية كان يتولى مسئوليتها زكريا محى الدين، وظل بعد قيام الثورة فى موقعه كضابط بالقوات المسلحة، فلم يشغل باله بالعمل السياسى أو التطلع للمناصب على نحو ما فعل بعض زملائه من "الضباط الأحرار" وادى واجبه فى الدفاع عن البلاد خلال العدوان الثلاثى على مصر عام 1956.

وكان محمد فوزى قد حصل على شهادة أركان الحرب عام 1952 وعين كبيراً للمعلمين بالكلية الحربية عام 1953، ثم أصبح مديراً للكلية الحربية عام 1958، عرف بين الطلاب بالحزم والإفراط فى الانضباط حتى قيل أنهم أطلقوا عليه "الرجل الصخرى" ولكنهم كانوا يحبونه ويرون فيه القدوة والمثل الذى يتحذى، (وهى الصفات التى جعلت جمال عبد الناصر يختاره لحمل عبء إعادة بناء القوات المسلحة بعد كارثة 1967)، ولم يترك إدارة الكلية الحربية إلا ليعين رئيساً لهيئة أركان حرب القوات المسلحة عام 1964، وليصبح –فى نفس الوقت–أمينا عسكرياً مساعداً بالجامعة العربية حتى عينه جمال عبد الناصر فى 11 يونيو 1967قائداً عاماً للقوات المسلحة ثم وزيراً للحربية فى 1968/1/20.

إعادة تنظيم القوات المسلحة

توثقت صلة محمد فوزى بالرئيس جمال عبد الناصر بعد أن أصبح رئيساً للأركان العامة، وبلغت ذروتها عام 1966، وكان هذا المنصب العسكرى الرفيع قد أتاح لمحمد فوزى الوقوف على أحوال وقدرات الجيش المصرى –عندئذ– وأعد خطة شاملة لإعادة تنظيم القوات المسلحة على أسس عملية. . فقد راعه تدهور مستوى القوات المسلحة، والقصور فى تجهيز مسرح العمليات للمواجهة مع العدو، وخروج أعداد ضخمة

من القادة والضباط من الخدمة لأسباب سياسية خلال حقبة زمنية قصيرة مما كان له أثاره السلبية فى الخبرة العسكرية والتقاليد العسكرية المتوارثة، ففيما بين 1952 – 1967، كان عدد القادة والضباط الذين طردوا من الخدمة يفوق كثيراً عدد زملائهم المحالين إلى التقاعد بحكم السن أو الوفاة أو الاستشهاد مماً نتج عنه عدم وجود تدرج هرمى مقرون بزمن معقول للاحتفاظ بالخبرة العسكرية، كذلك لعب الصراع الخفى بين الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر، وانفراد الأخير بالسلطة الفعلية على القوات المسلحة، دوراً بارزاً فى التأثير السلبى على صنع القرار العسكرى الإستراتيجى للدولة، ناهيك عن فقدان القوات المسلحة المساندة المعنوية من الشعب بسبب الممارسات التى اتسمت باستعراض القوة واستغلال النفوذ، والخلط بين السلطات، وعدم الانضباط والتعالى والمبالغة الإعلامية فى قدرات القوات المسلحة (مقولة أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط). كل ذلك جعل محمد فوزى يستشعر الخطر، ويفكر فى تقديم "وصفه" لعلاج أمراض القوات المسلحة ولما كان ولاؤه للقائد الأعلى صديقة القديم جمال عبد الناصر، فقد تحايل لتجاوز التسلسل القيادى الذى يلزمه بالاتصال بالمشير عامر أولا، وقدم خطته لتطوير القوات المسلحة إلى الرئيس جمال عبد الناصر مباشرة عام 1966.

كان الزمان صيف 1966، والمكان الإسكندرية، وقد استحسن عبد الناصر الخطة التى اقترحها محمد فوزى، ولكنة نصح بتأجيل مناقشتها حتى يتم الفراغ من المأزق الذى كانت تواجهه القوات المسلحة فى اليمن، وفى التاسعة إلا الربع من صباح 5 يونيو 1967. اتصل محمد فوزى تلفونياً بالرئيس عبد الناصر ليبلغه أن الكارثة قد وقعت . . وهكذا لم تتح لمحمد فوزى فرصة تنفيذ فكرته لإعادة تنظيم القوات المسلحة إلا بعد كارثة 1967 عندما عين فى 11 يونيو 1967 قائداً عاماً للقوات المسلحة، ولم يعد الأمر أمر إعادة تنظيم، ولكنه أصبح إعادة بناء لحطام القوات المسلحة فى أصعب الظروف وأكثرها حرجاً. وقد كشفت المحنة عن معدن الرجل . . وسجلت اسمه فى مقدمه أسماء بناة الجيش المصرى الحديث.

الصمود والمواجه والتحدى

قسم محمد فوزى فترة والسنوات الثلاث التى شهدت إعادة بناء القوات المسلحة إلى ثلاث مراحل هى: الصمود، والمواجهة، والتحدى والرادع.

إمتدت المرحلة الأولى من يوليو 1967 حتى مارس 1968، وشهدت ضغوطاً سياسية للتوصل إلى حل منفرد مع إسرائيل بطريق التفاوض المباشر وعلا مد الحرب النفسية لخفض معنويات القوات المسلحة والشعب المصرى. وجاء صمود القوات المسلحة المصرية من خلال ثلاث معارك صغيرة ناجحة ليعيد الثقة فى نفس المقاتل المصرى . . وكان إنشاء أول نسق دفاعى غرب القناة وتماسك الجبهة الداخلية وراء قيادة عبد الناصر وتأييد الدول العربية الذى تحقق فى مؤتمر القمة بالخرطوم، واستمرار تدفق

الأسلحة والمعدات من الإتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الأخرى سنداً قوياً للقوات المسلحة المصرية فى مرحلة الصمود.

وشهدت الفترة من مارس 1968 حتى بداية عام 1969 مرحلة المواجهة التى اتسمت بسرعة دوران عجلة تدريب وا ٍعداد القوات المسلحة واستكمال بناء التشكيلات الجديدة المقاتلة، ودفعها إلى منطقة التجميع الرئيسى غرب القناة، وا ٍنشاء قيادتى الجيشين الثانى والثالث الميدانين وتحمل مسئولياتهما فى المنطقة الدفاعية، وبدء الانتقال إلى مرحلة الدفاع الإيجابى والعمل ضد العدو شرق قناة السويس ليلاً ونهاراً بعمليات برية، وهجمات جوية اتخذت طابع الاستنزاف لقوات العدو ومعداته ومنشآته الميدانية، فكانت مواجهة العدو وقتاله بروح الثأر أحسن فرصة لرفع كفاءة ومقدرة القوات المسلحة على القتال والحصول على معلومات ميدانية قيمة عن العدو كانت ذات فائدة كبيرة فى المرحلة التالية، واتسع نطاق المواجهة جنوباً ليشمل خليج السويس، مما زاد من أعباء العدو، واضطره إلى مواصلة تعبئة قواته حتى بدأ يشعر بالاستنزاف الحقيقى لقواته وموارده.

أما المرحلة الثالثة فامتدت من أبريل 1969 حتى يوليو 1970، واتسمت بتحدى العدو والقيام بمبادرات حربية من قواتنا ضد العدو فى العمق التعبوى داخل سيناء بريا وجويا وبحريا، فوصلت إلى العريش شمالاً وا ٍيلات جنوباً مما اجبر العدو على نشر قواته وزيادة عددها فى مناطق بعيدة، واضطر إلى إشراك قواته الجوية فى العمليات فى عمق مصر وعلى خطوط المواجه. ولكن ردع قواتنا وخاصة الدفاع الجوى وبدء إنشاء حائط الصواريخ سام الشهير غرب القناة، ووجود الطيارين السوفيت وعناصر الدفاع الجوى من الصواريخ فى عمق مصر منع العدو من استخدام قواته الجوية ضد العمق المصرى، وانتهت المرحلة بتحقيق خسائر فى القوات الجوية للعدو التى تعرضت لصواريخ سام، فتحول العدو فى سيناء إلى الدفاع التقليدى وكان لهذه المرحلة مردودها السياسى، فبدأت الولايات المتحدة الأمريكية تتجه نحو طرح الحلول السلمية للتسوية الشاملة، فقدمت مشروع روجرز لوقف إطلاق النار المؤقت.

وعندما ناقش الرئيس جمال عبد الناصر مبادرة روجرز مع محمد فوزى رأى قبول وقف إطلاق النار لمدة تسعين يوماً حتى يتم خلالها استكمال بناء المواقع الاحتياطية لصواريخ الدفاع الجوى وزحزحة حائط الصواريخ كله إلى الشاطئ الغربى لقناة السويس، وعندما تحدد وقف إطلاق النار فى الواحدة من صباح 1970/8/8 استطاع محمد فوزى تحريك أربع عشر كتيبة صواريخ بعد غروب يوم 1970/8/7 لتصل إلى شاطئ القناة قبل الواحدة من صباح 1970/8/8 وبوقف إطلاق النار كانت القوات المسلحة قد وصلت إلى قدرة وا ٍمكانيات عسكرية ومعنوية عالية بفضل المعارك المستمرة والصدام والمواجهة مع العدو التى استمرت طوال ثلاث سنوات.

وبالتدريب الشاق المتواصل فى نفس الوقت، كما تم اختبار جميع التشكيلات الميدانية فى جميع أفرع القوات المسلحة على واجبات عمليات تحرير الأرض فى إطار من التنسيق والتعاون.

الخطة 200 وتحرير الأرض

فقد تم إعداد خطة تحرير الأرض (الخطة 200) فى خط مواز لعملية بناء القوات المسلحة وتنمية قدراتها القتالية، وكان يتم تطويرها كل ستة شهور ويروى محمد فوزى أن الرئيس جمال عبد الناصر دعا إلى اجتماع مصغر فى أخر أغسطس حضره ممثلان عن مجلس الدفاع الوطنى هما وزير الخارجية ووزير الحربية لعرض الموقف السياسى والعسكرى بعد وقف إطلاق النار المؤقت، وبعد مناقشة الموقف اقر وزير الخارجية أن الموقف السياسى الخارجى لن يكون أفضل من الموقف الحالى. وابدى محمد فوزى استعداد القوات المسلحة لبدء معركة التحرير فور انتهاء فترة وقف إطلاق النار، وانهى الرئيس الاجتماع بعد أن حدد لفوزى استعداده للتصديق على خطط العملية الحربية المرحلية والشاملة لتحرير الأرض فى مرسى مطروح فى الأسبوع الأول من سبتمبر 1970.

وسافر محمد فوزى مع الرئيس بالقطار إلى مرسى مطروح ومعه 14 خريطة تشمل قرارات (الخطة 200) الشاملة، والخطة (جرانيت) المرحلية، وكذلك خطة القوات المسلحة السورية لتحرير الجولان موقعا عليها من وزير الدفاع السورى، أما الخطط المصرية فلم يكن ينقصها سوى توقيع الرئيس باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة، ويذكر فوزى أن الرئيس شغل بزيارة مفاجئة قام بها القذافى ثم وقعت حوادث الأردن (أيلول الأسود) فلم يتمكن من الإنفراد بالرئيس عبد الناصر لتوقيع الخطط ولكنه ابلغه شفوياً بالتركيز على تنفيذ الخطة (جرانيت) المرحلية بعد انقضاء الفترة الأولى لوقف إطلاق النار فى 1970/11/7 ولكن وفاة عبد الناصر فى 28 سبتمبر حالت دون استمرار التخطيط الزمنى المقرر لبدء معركة التحرير.

ويؤكد محمد فوزى أن قياس قدرات قواتنا على قوات العدو فى أواخر 1970 وأوائل 1971 كانت لصالح قواتنا عدداً وتسليحا وكفاءة، وان توقيت تنفيذ الخطط الموضوعة للتحرير والتى تم التدريب عليها عملياً كان توقيتا مخططاً تخطيطاً سليماً. وقد أحست إسرائيل بذلك الاختلال فى ميزان القوى فعززت قواتها عام 1972، 1973 بتسليح أمريكى إضافى وخاصة فى قواتها الجوية والمدرعة بما يوازى ثلث قوتها العسكرية عام 1971، وبذلك بدأ ميزان القوى يتحول لصالح إسرائيل ابتداء من عام 1973، مما يؤكد – مرة أخرى– أن توقيت معركة التحرير فى أواخر 1970 أو أوائل 1971 كان توقيتا سليماً.

***

كانت وفاة عبد الناصر وتصفية المقاومة الفلسطينية فى الأردن فى سبتمبر 1970 لها تأثيرها على الموقف الإستراتيجى العربى عامة، ولكنها لم تؤثر على التفوق العسكرى العربى على إسرائيل، وبدأ السادات يرسل إشارات تلمح إلى استبعاد معركة تحرير الأرض بالقوة، عندما أعلن عن مبادرته من اجل حل جزئى فى 4 فبراير 1971، موضحاً أمله فى إنهاء الصراع العربى الإسرائيلى عن طريق الحل السلمى، مما أدى إلى وقوع خلافات فى الرأى بينه وبين المجموعة القيادية التى ورثها عن عبد الناصر وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك على موقف فوزى من الرئيس الجديد الذى رأى أن يماطل ويسوف فى تنفيذ خطة التحرير.

جندى لا تشغله السياسية

لقد كان محمد فوزى جندياً لا تشغله السياسية إلا من زاوية تأثيرها على الموقف العسكرى، ولم يسبق له أن حرك ميدان السياسة بعدما قامت الثورة، فقد ظل منكبا على أداء واجباته كضابط ومعلم ومدير للكلية الحربية، واكتفى بدور المراقب للصراع السياسى وصراع السلطة بين عبد الناصر وعامر دون أن يورط نفسه فيه، حتى إذا وجد نفسه فى السلطة قائدا عاماً ووزيراً للحربية لم تشغله السياسية طوال عمله تحت قيادة عبد الناصر إلا من زاوية هدفه وواجباته وهو بناء القوات المسلحة وتحرير التراب الوطنى وكاد يصل إلى تحقيق الهدف بالتحرك نحو معركة التحرير التى حدد عبد الناصر موعدها (شفوياً) قبل أسبوعين من وفاته. أما السادات فله باع طويل فى السياسية وألاعيبها جعله يبقى فى دائرة السلطة طافياً على السطح، وجاء موت عبد الناصر المفاجئ ليضعه فى موقع القائد الأعلى للقوات المسلحة فكان طبيعياً أن يتخلص ممن عملوا مع عبد الناصر حتى يضمن عدم التعرض لتوجهاته السياسية الجديدة، وبعبارة أخرى كان الصدام الذى وقع بين السادات ومجموعة القادة الذين ورثهم عن عبد الناصر صداماً متوقعاً، فلم يكونوا رجاله، كما انه كان يريد أن يتبع أسلوبا مختلفاً فى العمل لن يستطيع إتباعه إلا إذا تخلص منهم، فكان الموقف من معركة التحرير فخا استطاع اصطيادهم به.

ونصب السادات الفخ عندما أرسل إشارات سياسية المصالحة التى أزعجت من عبئوا تحت قيادة جمال عبد الناصر للثأر من هزيمة يونيو 1967، وشاركوا فى تحمل مشقة إعادة بناء القوات المسلحة وعلى رأسهم محمد فوزى الذى ألح على السادات أن يصدق على خطة معركة التحرير، فراح يماطل ويسوف، ثم حدد موعداً ولكنه رفض توقيع الوثائق الخاصة به، فم يطق محمد فوزى صبراً وهو يرى أن مرور الوقت لن يكون فى صالح المعركة إذا انقضى الظرف التاريخى المناسب. ولما كان قائداً عسكرياً ملتزماً استقال من منصبه وقبع فى داره، وتبعته المجموعة التى ضمت رجال عبد الناصر فكان ما كان من تعرضهم للتصفية فيما سمى بثورة التصحيح التى جعلت من 15 مايو 1971 بداية لشرعية جديدة استند إليها السادات، وجعلها قاعدة توجهه السياسى الجديد.

***

وعندما اضطر السادات إلى تنفيذ خطة التحرير، لم يكن هناك مفر من الاقتصار على الجانب المرحلى مع تحجيمه ليصبح أداة لتحريك الحل السياسى، وهو ما تحقق فى حرب أكتوبر 1973، ولكنه لم يستطيع أن ينكر فضل محمد فوزى فأشاد به فى أكثر من مناسبة وما تحقق على يديه من إعادة بناء القوات المسلحة وا ٍعدادها لواجب التحرير، وكان حرص الرئيس محمد حسنى مبارك على الاشتراك فى تشييع جنازة فوزى تقديراً لدورة التاريخى فى خدمة وطنه وأمته.